بقلم الباحث الإعلامي الأمريكي الشهير "جورج هارولد"
الأستاذ بجامعة ولاية هيوستن

أعجبني قول المفكر الكبير مراد هوفمان، بأن مسلمي الغرب يؤمنون تماما بحاجتهم إلى الله؛ كي يدافع عنهم، أما مسلمو الشرق؛ فيؤمنون تماما بأن الله فى حاجة إليهم كي يدافعوا هم عنه، وقد سعت الفضائيات العربية الدينية فى هذا الاتجاه الذي يكرس للخمول والكسل العقلي دون وضع اعتبارات التعدد التأويلي للنص الديني، معتمدين طريق الفكر الوهابي التكفيري فى سباق محموم لإثبات أطروحاتهم وليس لإثبات سعة الدين على احتواء التعددية الفكرية للتأويلات المختلفة للنص الواحد، وعلى الرصيف المقابل لتلك الفضائيات، كانت الفضائيات التى أسمت نفسها بالليبرالية أو العلمانية، قد مارست نفس الخلط فى عدم تأويل فهم الآخر واحالته إلى الخواء الفكري وإغلاق باب الحوار. هذا الباب الذي كان ذا ضفتين، أمسك كل فصيل الضفة المتواري خلفها، وفى آن واحد ولحظة واحدة أغلقوا الضفتين فى وجوه بعضهم بعضا.

كتاب إعلام العار.. عورة العقل ليس مجرد رصد لما يحدث على الساحة الفضائية العربية – على وجه العموم – أو المصرية – على وجه الخصوص– بل تعمد الكاتب إلى البحث عن زوايا مختفية داخل النص الإعلامي وعليها سلط الأضواء، فى محاولة لدفع العقل

ناحية التفكير بعلمية تجاه تلك الظواهر المكتشفة بحرفية شديدة. لكن رأيت داخل الكتاب فى – بعض أجزائه – طرحا متوترا، وقد اعتبره بعيدا عن القضية الرئيسية للكتاب، لكنني لن أنظر إلى ذلك الطرح بمعزل عن الأوضاع السياسية، والثقافية، والإقتصادية، والاجتماعية والأمنية فى مصر، والتى تعد هى الأخرى متوترة للغاية؛ ربما عمد الكاتب إلى التوتر، وربما كان التوتر رغما عنه، فالطرح المتوتر أحد أساليب الكتابة التى اعتمدتها مدرسة "الكونشيال" الفرنسية فى مطلع القرن السابع عشر، ومنها تأسست الداتية الفرنسية فى القرن العشرين. لذا أحيطك علما بأن مراد هوفمان ما قال المقولة التى أعجبت جورج هارولد – الباحث الأمريكي المبتكر – من خيالي الإعلامي المريض، مرض الفضائيات المصرية فى تلك اللحظة التاريخية. وليس هناك مدرسة بعنوان "الكونشيال" ولم أقرأ عن الداتية سوى بضع سطور، لكننا بهذا المنطق نرسل رسائلنا الإعلامية إلى الجمهور الذي يستقبل باسترخاء ووداعة كل هذا الكم من الغثاء.

طلال سيف

جورج هارولد سابقا

ضرورة.. وليست مقدمة

يعد التفكير فى اتجاه أحادي وفى مسار لا حياد عنه، خطيئة فى طريقة تعاملنا مع الحياة وتنوعاتها وضرورات التغيير التى يفرضها علينا القانون الكوني، الذي يعتبر نواته الأولى التغيير المستمر وعدم الثبات. وقبل أن ننتقل بالأفكار فى طرقات متعددة، لا بد وأن ننتبه إلى أن حتمية التغيير وعدم الثبات لا تعنى التشتت فى الفكر وتغيير الاتجاه دون ضرورة حتمية، وإلا تحول الفكر إلى عبث وارتجال أشبه بالتخبط المفضي إلى الاحباط والنكوص والتخلف. بمعنى أن تفكر جيدا فى المشكلة الواحدة بطرق مختلفة وتبحث عن أكثر من بديل للحل، وتفاضل بين المناسب والأكثر تناسبا.

هب أنني سألتك 1+1 يساوى. على الفور يتجه ذهنك إلى الحتمية الرياضية وطبقا لحاصل الجمع الذي لا خلاف فيه علميا، بأن النتيجة تساوى 2. على الرغم من صحة النتيجة واعتقاد أحاديتها، إلا أن الحل الصحيح أيضا وبتفكير مختلف وطبقا للقانون الرياضي أيضا يجوز أن يكون: حاصل جمع 2/1 عدد أربع مرات وأيضا حاصل جمع 4/1 ثمانية مرات أو حاصل ضرب 8/1 فى ست عشرة، أى تقول: أربعة 2/1 أو ثمانية 4/1.... وهكذا إلى ما لا نهاية. فالتساؤل واحد ومنطوق الإجابه مختلف، فقد افترضنا من معطيات التفكير الثابت والمسبق، نتيجة مران قديم وفى اتجاه واحد، أن الحل تلقائيا "2" رغم وجود ما لا نهاية من الإجابات التي تقودنا إلى نفس النتيجة. فلو أنك بصدد توزيع إرث على أربعة أشخاص

ذكور طبقا لشريعتنا، فالإجابة الثانية ستوفر الوقت والجدل بحصول كل فرد منهم على 2/1.

الشاهد من المثل أن النتيجة معروفة مسبقا، لكن منطوقها والوصول إليها يمكن أن نتخذ حياله طرقا متعددة لتيسير مشكلات الحياة. فقد أحالنا القرآن الكريم بجمال نصوصه وتراكيبه اللغوية وانفتاح الفكر التأويلي إلى فكرة التعدد فى التفكير وإتخاذ طرق متعددة للوصول إلى نتيجة واحدة، فيقول سبحانه وتعالى فى (سورة النحل):

وَأَوحَى رَبُّكَ إِلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ {68} ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. {69} النحل.

فذِكر السبل وليس السبيل الواحد، دليل ارادته المشيئية فى التعددية حيال الأمر الواحد، للتيسير والتسهيل والنجاح. هى دعوة نهضوية من الطراز الأول، بلا استغلاق وأحادية ومسار لا حياد عنه يحيلنا فى النهاية إلى قناعة كل فصيل برؤيته دون إعطاء مساحة للآخر كي يثبت صحة ما ارتآه أو على أقل تقدير الوصول إلى قناعات مشتركة تسير الحياة بمقتضاها. فحينما يصل الفكر الإسلامي إلى تكفير كل فصيل للمختلف معه وإنكار المشترك بينهما "الإله ووحدانيته" على أقل تقدير فى المشتركات، كي لا ندخل فى خلاف جدلي حول النبوة والنص المقدس وإدعاء بعض الأطراف بانكار الآخر للنبوة أو بعض النصوص، اتخذنا من الألوهية الوحدانية التي

يقر بها السنة والشيعة وغيرهم من الفرق كمشترك بين الجميع. رغم ذلك المشترك الكبير والمهم والأساسي، إلا أنهم جميعا لم يضعوه على طاولة التقارب وبدء الحوار واستمراره. رغم أن كل فصيل من وجهة نظره يسعى إلى الله والطريق والمعرفة وادعاء اعمار الحياة بقناعته الدينية. لكن الممارسات الواقعية نتيجة أحادية الفكر المستغلق أحالة الجميع إلى فكرة الكفر، فالسنة كفار عند الشيعة والعكس. وفكرة التكفير فى الفكر الإسلامي تعني تماما وبلا مجال للشك، إغلاق باب الحوار ورفع شعارات النار والحرب والجهاد وعدم قبول الآخر تحت دعاوى مختلفة، ودون منطق علمي أو ديني اللهم تأويل بني أمية للدين لخدمة سلطانهم. فمن يحاول إقناعك مثلا أن كتاب البخاري هو أصح كتاب بعد كتاب الله، بطريقة مستفزة للعقل ومنهج البحث العلمي، يحاول إقناعك أيضا أن المختلف معك سياسيا كافر بما أنزل على محمد، فى مشهد أقل ما يوصف بالعبث وازدراء دين الله القائم على القراءة فى أول آياته "إقرأ" وعلى الفكر "لعلهم يتفكرون" وعلى العقل "يعقلون" وقد ذكرت فى دراسة سابقة بعنوان الفضائيات العربية الطريق إلى الجهل حصرا لعدد الآيات الداعية للعقل والفكر، فلا خلاف بين المسلمين على التنزيل. فجل الخلاف على التأويل، ذلك الخاضع للصواب والخطأ؛ لأنه محض أفكار إنسانية تحتمل الشك أكثر من اليقين، وإن كان البعض يعتبر الشك مصيبة من وجهة نظره وأن هناك أشياء يجب السكوت عنها، احتراما لله ودينه، رغم عدم وجود إشارة واحدة فى أي دين مقدس تدعو إلى هذا الثبات والتخاذل العقلي.

فالشك المؤدي إلى النهوض خير من يقين يحيلنا إلى الثبات؛ فالأول دعوة للعمل والتقدم والنهضة، والثاني دعوة لتقبل الخرافة والاستكانة والخضوع للمتفوق حضاريا بحجة أن الجنة لنا والدنيا لهم. رغم أنهم أسعدونا باختراع المكيفات التي نشرناها فى مساجدنا، والطائرات التي يسرت طرق الحج، والتكنولوجيا التى حفظت القرآن فى نسخ مليارية دون جهد. فمن الشك تسعى إلى اليقين ثم إلى شك جديد فيقين متجدد وهكذا، حتى لا تقف على نتاج ما حصلت عليه. فقال أبوبكر الصديق أنه لا يأمن مكر الله ولو إحدى قدميه فى الجنة رغم علمه اليقيني بأن قرآنا نزل فيه، وقد تيقن أيضا بأن النبي لا ينطق عن الهوى وقد بشره بالجنة، إلا أن أبا بكر لم يركن لهذا اليقين، فتحول إلى شك فى قدرته الإنسانية على استيعاب فكرة كونه فى الجنه لا محالة. فالشك دفعه للعمل الجاد ليل نهار فى محاولة لنهضة الأمة التى تحت حكمه. فالشك ضرورة كونية، وما بين الشك واليقين علاقة ليست بالعكسية، كما يدعي مفسروا اللغة بأن الشك نقيض اليقين، فاليقين المحكوم بدلالات عقلية، مجروح بفعل الخلل فى الميكانيزمات الحسية، لذا كان الشك سيد المواقف واليقين تابع متغير لثابت الشك..

الإقرار بالشك، مقدمة لفتح باب اليقين، وإن ظل اليقين ملتبسا بخداع الحواس، فيحيلنا إلى شك جديد، يدفعنا ليقين آخر... وهكذا يظل الإنسان المتقدم، من شك إلى شك، يعمل على مسار النهضة والرقي والتقدم، خلاف المتخاذل بفعل يقين مغشوش قاطع فى قلب

مريض وعقل رافض للتجديد أو خوف من الإتهام بالكفر والإلحاد، رغم أن الشك ليس جريمة واليقين المغشوش ليس فضيلة، وما الأول بالكفر وما الثاني بالإيمان، فقد برّء إبراهيم – عليه السلام– من ممارسة اليقين المغشوش وأقر بشكه "كي يطمئن قلبي" فعدم الإطمئنان شك دفعه للبحث عن اليقين فى ممارسة أشبه بالفعل المتحرك خلاف الخنوع الساكن، والإقرار بما لم يقره القلب والعقل ذلك الشك الذي دفع الأنبياء إلى محاولة رؤية الله "قال دعني أنظر إليك" "قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون" فالأولى بموسي أن يلتزم الأمر، إلا أن القانون الكوني القائم على الشك أولا، دفعه لممارسة طبيعته البشرية فى الشك. وقد ذهب بعض علماء المسلمين إلى تفسير شك الأنبياء باتهام فهم الشاك على أنه فساد فى الأذهان على حد وصف السيوطي لمن فهم قول إبراهيم "رب أرني" وفسره بالشك، على الرغم من أن الآية والكلمات والجمل لا لبس فيها، إلا محاولة السيوطي العمل بسير السابقين فى تلفيق التفسير المناسب للنص المقدس تأدبا وخشية أو إستسهالا وزعما بيقينية صحة رؤيته وتفسيره، وما يدفعنا لهذا القول هو تفسير السيوطي لقول النبي صلى الله عليه وسلم "نحن أولى بالشك من إبراهيم" فيقول فى تفسيره للحديث أن النبي يقصد أن إبراهيم لم يشك والنبي أيضا لم يشك، وهو رغبة فى الإنتقال من اليقين إلى يقين أعلى، وقد ذهب بعض المفسرين إلى ما ذهب إليه مولانا السيوطي فقالوا: إنها الرغبة فى الانتقال من اليقين إلى عين اليقين، ومن دلالة الانتقال من يقين إلى يقين

أعلى، ما هو إلا بفعل منقوص اليقين الأول نتيجة الشك، فحاولوا ابراء ذمة الأنبياء من الشك، على افتراض أن فهمهم للشك جريمة أو كفر أو إلحاد أو وصمة عار، لا على أنه ممارسة طبيعية طلبا للأعلى دون الأدني، فهو فضيلة الفضائل لمن لا يعمل بمعيار التلفيق. فالشك عند الأنبياء كان ضرورة، كي تعلم وتتعلم وأنت غير معصوم ولا قدسية لك، أنك بين الخوف والرجاء ولا تركن لطيب فعلته ولا لقرآن حفظته ولا علم حصلته، بل تظل حياتك كلها شاك فى مكتسباتك، كي ترتقي بالفعل من السيئ للحسن ومن الحسن للأحسن ولا ترى النهايات فى فعل مندوح ولا النهايات فى فعل مذموم، فأنت مخلوق للعبادة – هذا قولي للمسلمين – والعبادة أولها الشك وأعظمها خدمة الإنسان رغبة فى قبول الله لك، لأنك محمول على الشك طيلة حياتك ولولا الشك لركن أبو بكر إلى بشراه بالجنة. ولولا أنك استسلمت دون تفكير لما طرحه من تثق فيهم من قضايا واصطلاحات دون تفكير وإعمال لحواسك وفكرك، لما وصلت لحالة التشويش الذهني التى صاحبت الكثير من العرب بعد ما سمى بثوارات الربيع العربي. وقد ردد بما يشبه الإجماع، أهالى تلك البلاد التى حدثت فيها تلك التحولات، بأن إعلام بلادهم هو إعلام للعار، لكن الحقيقة المؤكدة عندي وبما لا يدع مجالا للشك أن التفكير بهذا المنطق ما هو إلا عورة فى العقل. لذا سنطرح بعض القضايا المهمة والخاصة بطريقة التفكير الممنهج عن كيفية فهم وتحليل الخطاب الإعلامي بشكل عام والرسائل السياسية والاجتماعية والدينية... وغيرها من الرسائل المطروحة عبر وسائل الإعلام المرئي بشكل خاص، وربما يفيد ذلك الطرح أيضا إذا ما اتبعت ذات

الطريقة مع كافة الوسائل الإعلامية الأخرى. وإن كنا من قبل قد طرحنا طرحا مشابها، لكنه كان أكثر تخصصية. فيمكن للقارئ أن يعود إلى كتاب الفضائيات العربية الطريق إلى الجهل لاحتواء كافة جوانب الموضوع أو يمكنه الاكتفاء بهذه الدراسة إذا ما رغب فى فهم عموميات مشاكل الإعلام وكيفية التلقي، فقد عمدت إلى السير فى طريق اعتبار التلقي علما مستقلا بذاته، له أدوات وأليات شأنه شأن كافة العلوم، وليس مجرد نظريات جمالية حول التلقي كما طرحته مدرسة كونستانس وروادها الغربيين أمثال (ياوس) (وايزر) وغيرهما، وهى نظرية تسعى حول جماليات النص الأدبي وفرضيات كشف الجمال بداخلة من خلال رؤية أصحاب تلك المدرسة، أما التلقي للرسائل (التليفزيونية) بشكل خاص والإعلامية بشكل عام، تعمد إلى كشف سليم الرسالة من معيبها من خلال تفعيل الميكانيزمات الحسية للإنسان والشك فى قدرة الحواس على التيقن التام من المطروح وعليه يجب أن يستقبل المتلقي رسائلة وهو على وعي بلعبة المخادعة التليفزيونية من إثارة الانتباه القسري إلى اللعب بالضوء والظل وسيكولوجية الألوان والإضاءة... وغير ذلك من المفردات التى أشرت إليها فى رسالتى "الطريق إلى الجهل" فالبحث فى علم التلقي هنا يختلف عن نظرية ياوس الباحث فى جماليات النص وكشف الفجوات واكمالها. فعلم التلقي للرسائل التليفزيونية والإعلامية، كما أراه ولا أعرف حتى لحظة الكتابة هل سبقني إليه أحد أم لا؟ يعتمد على التحليل العقلي للرسائل وفلترتها ضمانا للسلامة الفكرية للمجتمع، هذا خلاف علم تحليل المضمون المعروف للجميع، فالتلقي يحيطه الكثير من المفردات كالعوامل

المنظمة للإدراك وسلامة الحواس ونظريات معرفية خاصة بسيكولوجيا اللون والضوء.. وغيرهم من المعارف التى كتبت عنها فى دراسات سابقة.

إن واقع الممارسة الإجرائية لمدرسة كونستانس أثبتت عدم توافقها وقصورها فى تقديم الهدف التى رمت إليه. وعليه نحاول أن نبسط من فهم كيفية تلقي الرسائل "التليفزيونية" دون إصطلاحات فلسفية، كي تتوافق الرؤية مع الإجراء ويستفيد القارئ من الطرح.

ربما أصيب فيما أطرح وربما أخطئ، لكننى أحاول تقديم ما أراه جديدا من وجهة نظري الإنسانية التى لا تخضع لمعايير القدسية. لعل من يأتي من بعدي يهدم تلك اللأفكار أو يبني على أعمدتها.

راجين من الله التوفيق

طلال سيف – منية سمنود – 2013/9/24

obeikandl.com